بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدهُ ونستعينُه ونستهديه ونستغفره، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنَا ومن سيئاتِ أعمالنا. مَن يهده اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومَن يُضلل فلا هَادِيَ لَهُ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وحدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعد.

فلقد أنزل اللهُ الذِّكْرَ وحَفِظَه؛ ليُتدبر وليُعمل به. قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)

ومما يُعين على حُسن التدبُّر أن يكون الإنسانُ على صلةٍ بالقرآن الكريم كُلِّه؛ فإن القرآن يُفسِّرُ بعضُه بعضاً.

ومن أفضل التفاسير التي عُنيت بذلك (تفسير القرآن العظيم) للإمام الجليل الحافظ، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي رَحِمَهُ اللهُ؛ فإن هذا التفسير بما اشتمل عليه من تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسُنة، وذكر ما صحَّ من أقوال الصحابة والتابعين، هذا التفسير له فوائده، لا في تفسير القرآن وبيانه فحسب، بل في طريقة فَهْمِه، وحُسن تدبره، والعمل به، فقد التزم رَحِمَهُ اللهُ ما ذكره في مقدمته، حيث قال:

إنَّ أصَحَّ طرائقِ التفسير أنْ يُفَسَّرَ القرآنُ بالقرآنِ؛ فما أُجْمِلَ في مكانٍ فإنه قد بُسِطَ

(١) ص: ٢٩.

في مَوْضِعٍ آخرَ، فإن أعْياكَ ذلك فَعَلَيْكَ بالسُّنَّة؛ فإنها شَارِحة للقُرْآن، وَمُوَضِّحة له. بل قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: « كُلُّ ما حَكَمَ به رسولُ الله ﷺ فهو مما فَهِمَهُ من القرآن؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ (١)، وقال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢)، وقال جلَّ شأنه: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (٣)، ولهذا قال الرسول ﷺ: « أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » (٤) يعني: السُّنة. ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: « والغرض أنك تطلبُ تفسيرَ القرآن منه، فإن لم تجده فمن السُّنة، وإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السُّنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك؛ لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختُصُّوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح.

ولا شكَّ أن الجمع بين القرآن والسُّنة في التفسير يُظهر ما بين القرآن والسُّنة من ترابطٍ وثيق، وهو ما عبَّر عنه الشافعيُّ بقوله: « ومَن تدبَّرَ ذلك علم أنه لا فصل بين القرآن والسُّنة، وأن خيرَ سبيلٍ لتفسير القرآن وتدبُّره أن نتأمله في شخص الرسول ﷺ، وكلماته، وحياته، وجهاده، وسلوك صحابته الأطهار أ.هـ »

وهو السبيل لردِّ الأمة إلى عزِّها ومجدها، وقيامها برسالتها. ولا عزَّ لها إلا أن ترى

---

(١) النساء: ١٠٥.

(٢) النحل: من الآية ٤٤.

(٣) النحل: ٦٤.

(٤) أحمد: مسند الشاميين، حديث المقدام بن معدي كرب، رقم ١٦٥٤٦.

كيف كان القرآن الكريم خُلقاً لنبيِّها ﷺ، وكيف كان يرضى برضاه، ويسخطُ بسخطه.

وبنُورِ هذا الكتاب وبيانه نستطيعُ أن نُبصرَ الأمورَ على حقيقتها، وأن نُحسن الاتِّباع فيما أُمرنا به أو نُهينا عنه.

ومن هنا نستطيعُ أن نُقَدِّرَ قيمةَ تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ ابن كثير؛ فقد جاء تفسيره رَحِمَهُ اللهُ مُحقِّقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (١)

وسنرى الترابط الوثيق بين السُّنة المطهرة والقرآن العظيم من خلال ما يتيسرُ لنا من الوقوف عنده من الآيات؛ لتكون تبصرةً بما جاء في كتاب الله وسُنَّةِ نبيِّنا ﷺ في أمور ديننا ودُنيانا. والله أسألُ أن يُعين على ذلك، وأن يوفِّقَ إليه بفضله ورحمته.

أخي المسلم: القرآنُ الكريم معك، محفوظٌ بحفظ ربِّك. فاجعله أنيسك في خَلوتك، ورفيقك في سفرك، وصديقك في عُسرك ويُسرك، ومستشارك الأمين في دِينك ودُنياك. عليك أن تزِنَ به أمرك، وتُصحح قصدك، وتُصلح عملك، وأن تحذر - كلَّ الحذر - من هوى نفسك، وغفلةِ قلبك. عليك أن تتَّبع الهُدى من ربِّك؛ لتُصْلِحَ وتُفْلِحَ.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ (٢)

محمد الراوي

---

(١) النحل: من الآية ٤٤.
(٢) طه: من الآية ١٢٣.

obeikandl.com